شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٥)

[الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان] / [مسألة الإيمان]

١. [الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان]

قال أبو عثمان الصابوني - رحمه الله:

ثم انتقل بعد ذلك:

ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا تفنيان أبداً، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها، لا يخرجون منها أبداً، ويؤمر بالموت فيذبح على سور بين الجنة والنار، وأن المنادي ينادي يومئذ: ((يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت))، على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا من عقائد أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان يعني موجودتان الآن والدليل على وجودهما الآن أن الله تعالى في حق الجنة: { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }، وقال في حق النار: { أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } يعني: هيئة، ويدل على ذلك أيضًا: حديث صلاة الكسوف، فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم الكسوف رأوه مرة تقدم ومرة تأخر وبين لهم ذلك بعد انقضاء الصلاة في خطبة مؤثرة قال: ((ما رأيت منظر كاليوم أشنع ولا أفظع، رأيت النار يحطم بعضها بعضًا، ورأيت فيها عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار؛ لأنه هو أول من أدخل الأصنام في العرب، ورأيت فيها المرأة التي حبست الهرة، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من هشاش الأرض، فذلك حينما رأيتموني تأخرت، ورأيت الجنة فما رأيت منظرًا أنعم ولا أحسن، وهممت أن آخذ قطفًا منها، فلو أخذته

لظللتم تأكلون منها ما بقيت الدنيا لا يفنى، وذلك حينما رأيتموني تقدمت))، فهذا دليل على وجود والجنة والنار حاليًا، وأنه يزاد فيهما، وأيضًا أنهما باقيتان لا تفيان أبدًا خلافًا لمن زعم فنائهما فأهل الجنة مخلدون فيها، وأهل النار الذين هم أهلها لا عصاة الموحدين الذين يعذبون فيها مؤقتًا لا أهل النار المشركون الذين هم أهلها قد قال الله تعالى في ثلاثة مواضع في القرآن { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا }، فعبر بالتأبيد في ثلاث مواضع، وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري ومسلم: ((أنه يجاؤوا بالموت يوم القيامة على صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار ويذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)) لمثل هذا فليعمل العاملون.

٢. [مسألة الإيمان]

ثم قال:

ومن مذهب أهل الحديث: أن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال محمد بن علي بن الحسن بن شقيق: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله عن الإيمان في معنى الزيادة والنقصان؟ فقال: حدثنا الحسن بن موسى الأشيب قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: حدثنا أبو جعفر القطني، عن أبيه، عن جده عمير بن حبيب قال: الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه.

أخبرنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المزكى، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا أبو عمرو الحيري، قال: حدثنا محمد بن يحيى الذهلي ومحمد بن إدريس المكي وأحمد بن شداد الترمذي، قالوا: حدثنا الحميدي، قال: حدثنا يحيى بن سليم سألت عشرة من الفقهاء عن الإيمان فقالوا: قول وعمل، سألت هشام بن حسان؟ فقال: قول وعمل، وسألت ابن جريج فقال: قول وعمل، وسألت سفيان الثوري فقال: قول وعمل، وسألت المثنى بن الصباح فقال: قول وعمل، وسألت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فقال: قول وعمل، وسألت محمد

بن مسلم الطائفي فقال: قول وعمل، وسألت فضيل بن عياض فقال: قول وعمل، وسألت نافع بن عمر الجمحي فقال: قول وعمل، وسألت سفيان بن عيينة فقال: قول وعمل.

وأخبرنا أبو عمرو الحيري قال: حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن إدريس، وسمعت الحميدي يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد، تقول ينقص فقال: اسكت يا صبي بلا ينقص حتى لا يبقى منه شيء.

وقال الوليد بن مسلم سمعت الأوزاعي ومالكاً وسعيد بن عبد العزيز ينكرون على من يقول: إقرار بلا عمل، ويقولون: لا إيمان إلا بعمل.

قلت: فمن كانت طاعاته وحسناته أكثر فإنه أكمل إيماناً ممن كان قليل الطاعة كثير المعصية والغفلة والإضاعة.

وسمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن باكريه الجلاد يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: قال لي عبد الله بن طاهر: يا أحمد إنكم تبغضون هؤلاء القوم جهلاً، وأنا أبغضهم عن معرفة.

إن أول أمرهم: أنهم لا يرون للسلطان طاعة.

والثاني: أنه ليس للإيمان عندهم قدر.

والله لا أستجيز أن أقول إيماني كإيمان يحيى بن يحيى ولا كإيمان أحمد بن حنبل وهم يقولون: إيماننا كإيمان جبريل وميكائيل.

وسمعت الحاكم يقول: سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أبا بكر محمد بن شعيب يقول: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: قدم ابن المبارك الري فقام إليه رجل من العباد الظن به أنه يذهب مذهب الخوارج، فقال له: يا أبا عبد الرحمن ما تقول فيمن يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا أخرجه من

الإيمان، فقال: يا أبا عبد الرحمن على كبر السن سرت مرجئًا، فقال: لا تقبلني مرجئًا، المرجئة تقول: حسناتنا مقبولة، وسيئاتنا مغفورة، ولو علمت أني قبلت مني حسنة لشهدت أني في الجنة.

ثم ذكر ابن شوذب، عن سلمة بن كعيل، عن هزيل بن شرحبيل، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح.

سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني يقول: سمعت يحيى بن منصور القاضي، يقول: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت الحسين بن حرب أخا أحمد بن حرب الزاهد يقول: أشهد أن دين أحمد بن حرب الذي يدين الله به أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

هذه القطعة تتعلق بمسألة شريفة، وهي مسألة الإيمان وإذا تكلم عن الإيمان فإما أن يتكلم عن أركانه، وإما أن يتكلم عن حقيقته، فإذا قيل الإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، هذا حديث عن أركان الإيمان.

وإذا قيل: الإيمان قول وعمل، فهذا كلام عن حقيقة الإيمان وهذا هو الذي أراده المصنف ها هنا وهو أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان له حقيقة مركبة من قول وعمل، فالإيمان ليس قولًا فقط، وليس عملًا فقط، بل مجموع الأمرين، الإيمان قول وعمل، لا يكون الإنسان مؤمنًا الإيمان الشرعي الذي به الدخول في عقد الإسلام والنجاة من النار إلا باجتماع القول والعمل.

قال الإمام البخاري رحمه الله: أدركت ألفًا من علماء الحجاز والشام وخرسان ومصر وسائر الأقطار كلهم يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

فلا شك أن الإيمان مكون من هذين الأمرين من القول والعمل، ما المقصود بالقول؟ وما المقصود بالعمل؟

المقصود بالقول: قول القلب، وقول اللسان.

والمقصود بالعمل: عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح.

ونبين هذا على سبيل التفصيل:

أما قول القلب فهو اعتقاده وتصديقه وهو الذي دل عليه حديث جبريل قال: ((أخبرني عن الإيمان، قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) هذا قول القلب يعني اعتقاده وتصديقه ويقينه.

ما هو قول اللسان: هو الاستعلان بالشهادتين بمعنى أن يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله شهادة علانية، فلو امتنع عن الشهادة وقال: ما عليكم مني أنا مؤمن ولكن لن أشهد بالشهادتين، فإننا لا نحكم بإيمانه لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ لأن من مقتضى الإيمان يقول كما قال الله: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ }، {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا...} إلخ، فلابد من قول اللسان الذي هو الاستعلان بالشهادتين.

ما هو عمل القلب؟ هو ما يتحرك به القلب من النيات والإيرادات مثل: المحبة والخوف والرجاء والتوكل والأنس بالله والشوق إليه، يعني ما ينبض به القلب من أعمال فنهاك فرق بين قول القلب، وعمل القلب، قول القلب تصديقه، وعمل القلب حركته من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وما شابه ذلك.

وما هو عمل اللسان؟ عمل اللسان ما زاد على الشهادتين من اللهج بتلاوة القرآن وبذكر الله من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير وأمر بمعروف ونهي عن منكر، ودعوة إلى الله، وعموم الكلم الطيب.

وما هو عمل الجوارح؟ ما تتحرك به الجوارح من الطاعات من قيام وقعود وركوع وسجود ووقوف بعرفة وطواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة، وإماطة الأذى عن الطريق كل هذه عبادات، ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بعض وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)).

فقوله: ((فأعلاها قول لا إله إلا الله)) يشمل قول القلب وقول اللسان، ((وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)) يدل على عمل الجوارح وأنه من الإيمان، حتى إن الله سمى الصلاة إيمانًا فقال بعد حادث تحويل القبلة: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} و لم يقل: صلاتكم، فسمى الصلاة إيمانًا.

((والحياء شعبة من الإيمان)) هذا دليل على أن عمل القلب من الإيمان؛ لأن الحياء عمل قلبي، فتبين من هذا أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل، فلم يزل أهل السنة والجماعة يرددون هذه الجملة: الإيمان قول وعمل، قالها أولهم وآخرهم، لا يختلفون عليها، وربما عبروا فقالوا: قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، والمعنى واحد، وخالفهم في هذا فريقان: المرجئة والوعيدية.

فالمرجئة تساهلوا وفرطوا وقالوا: الإيمان هو في القلب فقط والعمل ليس داخل في الإيمان، فكل من أخرج العمل عن مسمى الإيمان فهو مرجئ؛ لأن المرجئة إنما سموا مرجئة؛ لأنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان يعني أخرجوه وأزاحوه، وفصلوه عن الإيمان فسموا مرجئة، والمرجئة أنواع وطبقات.

وأما الطرف المقابل فهم أهل التشدد والإفراط وهم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فإن القوم قالوا: نعم الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وهذا حسن موافق لكلام أهل السنة، لكنهم أفسدوا ذلك أيما إفساد حينما زعموا أن إخلالًا بواجب من الواجبات، أو راتكابًا بمحرم من المحرمات يهدم الإيمان كله، فعندهم إذا نقص الإيمان ذهب كله، وبطل كله، وهذا والعياذ بالله مذهب التشدد، فلذلك صارت الخوارج والمعتزلة يحكمون على مرتكب الكبيرة بأنه غير مؤمن زال عنه اسم الإيمان، فأما الخوارج زال عنه اسم الإيمان ودخل في الكفر؛ لأن من لم يكن مؤمنًا فهو كافر، كما قال الله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}، صحيح أن من لم يكن مؤمنًا فهو كافر.

وأما المعتزلة فقد تحبلقوا وجاءوا بقول لم يسبقوا إليه، قالوا: إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، و لم يدخل في الكفر – سبحان الله – أين ذهب إذن كيف خرج من الإيمان و لم يدخل في الكفر ضاع، اخترعوا عقيدة لم يسبقوا إليها، فقالوا: إنه في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر، وهذا قول لم يسبقوا إليه، قالوا: إنه في منزلة بين منزلتين، لا مؤمن ولا كافر.

وماذا يحكمون عليه في الآخرة؛ أما المرجئة فتقول: من صدق بقلبه فهو من أهل الجنة قطعًا ويقينًا ولو فعل ما فعل من الكبائر والذنوب.

وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة: فقد أجمعوا على أنه خالد مخلد في النار حتى المعتزلة الذين قالوا عنه أنه في الدنيا في مترلة بين مترلتين حكموا بتخليده في النار في الآخرة، ولم يشفع له أنه في الدنيا في مترلة بين المترلتين.

فهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان وقد ذكر فيها بعض القصص التي جرت في بعض أهل السنة منها ما جرى لعبد الله بن المبارك، وقد ساق أقوال كثيرة عن جمع من السلف المتقدمين ومما يعتقده أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأن أهل السنة يرون أن الإيمان له خصال عدة كما قال نبيهم صلى الله عليه وسلم: ((بعض وسبعون)) إذًا من الطبيعي أن يتفاوت أهل الإيمان فيه، فمن استكمل خصال الإيمان فهو كامل الإيمان، ومن نقص منها فإنه ينقص إيمانه، ولهذا فاضل الله تعالى بين أطباق المؤمنين المصطفين فقال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} كل هؤلاء مصطفين لكن ليسوا سواءً، فأما الظالم لنفسه فهو الذي ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فلذلك كان ظالم لنفسه فإيمانه ناقص، ومنهم مقتصد المقتصد هو الذي فعل الواجبات وترك المحرمات وكفى كالرجل الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، أرأيت إن صليت المكتوبات وصمت رمضان، وحججت بيت الله الحرام أو كما قال، أدخل الجنة، قال: ((نعم))، قال: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، وتولى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أفلح وأبيه إن صدق))، فمن اقتصر على الواجبات وترك المحرمات فإنه من المقتصدين فحقيق بدخول الجنة إن هو صدق، وأما الصنف الثالث: فهم السابقون بالخيرات وهم الذين ضموا إلى فعل الواجبات فعل المستحبات، وتركوا المحرمات وتركوا المكروهات، يعني أتوا بجميع خصال الدين الواجبة والمستحبة فهؤلاء هم السابقون بالخيرات، فهذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص.

وقد ذكر أحد الصحابة وهو عمير بن حبيب الختمي رضي الله عنه أنه سؤل عن الإيمان يزيد وينقص، قال: نعم يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: يزيد إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه، وهذا أمر يجده كل واحد منا في نفسه، حينما تجلس في مجالس الذكر والعلم يزيد

إيمانك يرتفع منصوبه، حينما تصلي تقوم الليل تتصدق يرتفع إيمانك وتصفوا نفسك، وحين يغرق الإنسان في الغفلات والشهوات يقسوا قلبه وكأن عليه حجاب وكأن على عينيه غشاوة وفي أذنيه وقر وعلى قلبه أكنة حتى يذكر الله فينجلي، فمعلوم أن هذا ينقص الإيمان ويشهد له قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف حين ينتهبها وهو مؤمن))، ما هو الإيمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم عن الزاني والسارق والشارب ونحوهم نفى عنهم كمال الإيمان الواجب، لم ينفي عنهم أصل الإيمان كما تدعيه الخوارج، لو كان نفى عنهم أصل الإيمان لما اكتفينا بجلد شارب الخمر، ولا بقطع يد السارق، ولا برجم الزاني غير المحصن، لكان حقهم القتل ردة لكن لما كان عندهم أصل الإيمان باقيًا اكتفي بهذه الحدود والتعذيرات.

وهكذا لما جاء ابن المبارك وراءه رجل من العباد وتعرفون أن العباد تغلب عليهم العبادة ولا يكون عندهم علم يغلب عليهم الجهل، فقال له: يا أبا عبد الرحمن ما تقول في من يزني ويسرق ويشرب الخمر، قال: لا أخرجه من الإيمان، ما قال أنه مؤمن كامل الإيمان، قال لا أزيل عنه وصف الإيمان، فقال ذلك العابد لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن على كبر السن صرت مرجئًا، يعني تقول بقول المرجئة، فقال في طمئنينة: لا تقبل من مرجئة، المرجئة تقول: حسناتنا مقبولة وسيئاتنا مغفورة وأنا لو علمت أني قبلت مني حسنة لشهدت أني من أهل الجنة؛ لأن المرجئة يأخذون بالتساهل ويحكمون لكل من صدق بقلبه بأنه من أهل الجنة وليس بأحد أن يقطع لنفسه ولا لغيره بأنه من أهل الجنة إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لو أني أعلم لي ركعتان متقبلتان لعلمت أني من أهل الجنة، ذلك بأن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، والمتقون هم أهل الجنة، لكن هذا المعنى يغيب عنا أيها الكرام نحن قد صلينا العصر من منا سأل نفسه أقبل الله صلاته أم لا نركع هذه الركعات ثم نقوم وكأن الأمر انتهى وكأننا سقط عنا الطلق وقبلت صلاتنا، صحيح سقط عنا الطلب ظاهرًا لكن الله أعلم أصلاتنا مقبولة أم لا، لا يستطيع أحد أن يجزم بأن صلاته مقبولة، بأن حجه مقبول لو علمنا هذا لعلمنا أنا من أهل الجنة لأن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} لكن نحسن الظن بالله، ونعظم الرجاء فيه، ونسأله سبحانه وتعالى القبول هكذا ينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.